نماذج من الأعمال السردية للكاتب علي الشعالي - باللغة العربية

المحتويات:

فصل من رواية "الحيّ الحيّ" 2
قصة قصيرة: "ظمأ" 20
قصة قصيرة: "جوع" 26

فصل من رواية "الحيّ الحيّ"

يحيى سعيد 1970 جميرا

إن أردت أن يكتمل بَدرُ بُنوّتك لسعيد الصياد فما عليك إلا أن تجيد السباحة، وتبرع في صيد السمك، ضمن أمور أخرى هامشية، فحتى بعد انتقاله إلى العمل في التجارة ظل سعيد وفيًا للبحر، يصبّح عليه من شرفة بيته، ويعُدّ والصغار من عياله مراكب الصيد الحالمة، واليخوت الماجنة، وناقلات النفط الراسية كالجبال في مدى البصر. في السانحات والليالي المقمرة يخرج مع ابنه البكر هلال وينصُبان اللّيخَ[1] لاستضافة جموع النيسر[2]، أما ما تطفّل على شباكه من البزيمي واليما[3] فتعاد له الحرية ولو متأخرة. كما يأخذ أسرته، ذكورًا وإناثًا، إلى رحلات لصيد القباقيب[4] في خور[5] البيضاء التابع لإمارة أم القيوين، إنها رحلة سفاري ليلية لقنص الحيوانات المائية، يمسك الواحد نيزة[6]، وبيده الأخرى مصباحًا كثيفَ الإضاءة، يمشي والماء واصل إلى ركبتيه، يسلّط المصباح على القباقيب البطيئة ويقنصها، ثم يكدّسونها إلى أن تُحصى لاحقًا لحسم المسابقة، مخلوقات هشّة العظام يكفيك أن تُواليها، واحدة بعد أخرى، ضرباتٍ دقيقة تخترق أجسامها الخالية من اللحم محافظًا على أذرعها الرهيفة التي تحوي فتاتًا، ولأنهم يعلمون أن جبلًا منها لن يسد جوعهم بعد ليلة حافلة، فإن شيّ الفندال[7]، وتناول المُغلفات، ينطلق والليلة طفلة، ويستمر حتى تصير عجوزا. هكذا.. فأسرة سعيد كلها متورطة مع البحر والسمك بشكل أو آخر، أما يحيى فطالب مجتهد في المدارس المنشأة حديثًا، وسيساعد أساتذته عندما يكبر في جمع أوراق الامتحانات، بل وتصحيحها، وسيصير رجُلَ مدينة ذا صيت، تُفتح له أبواب السيارات، وأبواب الغرف بأنواعها، لكنه يبقى رغم نجاحاته ومنجزاته المشهودة مصداقًا لنعوت إخوته وأقرانه: غَمْري[8]، وهَبْ سبّيح ولا بحدّيق؛ لا يجيد السباحة ولا صيد السمك! حين تجاوز الرابعة، أخذه أبوه ضحى جمعة إلى البحر، جلست أمه وسلامة وبقية أخواته على الشاطئ يشاهدن الدرس الأول في الطفو من أبيهم المعروف بحزمه، صفحة الماء مرآة لا غبش فيها، نسي الموجُ اليوم أن يتراقص، أو ربما توقف بإيعاز من سعيد، يحتضن ابنه ويمشي به إلى أن يهدأ روعه، يمسك بيدي الطفل ويترك رجليه حرّتين، ثم يعيد احتضانه، يضع كفّه تحت بطنه، وعند اختلال توازنه يعيد الإمساك به من تحت إبطيه ناظرًا في عينيه برسالة صارمة، يكرر التمرينات تحت عيني الأم وقلبها، بعد جمعتين يعود به إلى الشاطئ، يلقي به في حجرها قائلًا: "هذا الولد لن يتعلم السباحة أبدًا"، لكنه يذهب به في الجمعة التالية، والتي بعدها وأخرى، يوشك الولد أن يتقن الطفو، لكنه لا يتعلم السباحة، ولا أن يتخبط في الماء، يشبّهه أبوه بالبِلْد[9]، لكنه بحسب أمه وأخته سلامة أفضل من ذلك بقليل، فقد صار يستطيع الانتقال من نقطة إلى أخرى ولو بجهد جهيد، كمن يذهب لإحضار ورقة من طابعة المكتب ويعود لاهثًا، لا بأس.. فقد حقق الهدف. جرّب سعيد طرائقه المتنوعة التي نجحت من قبل في تكوين سبّاحين، نجحت مع أبنائه جميعهم، بل وإخوته وأبنائهم وبناتهم، وبعض فتيان جميرا، ثم استخدم ما يشبهها في إدارة شركاته، لا سيّما في تمتين مهارات الموظفين الجدد من الذين يقعون في دائرته القريبة، طرائق أثبتت نجوعها مرات عديدة، وعلى خط زمني ممتد، الفرق هذه المرة أن حنان الأم يقبض على شرايين الدرس، وآخر العنقود لبيب، تصله إشارات المساندة فيماطل؛ وقد سجّل في أسابيع قليلة نصرًا عزيزًا على النوخذة: "هاك ابنَك، ما دمتِ تخافين عليه إلى هذا الحد فعلميه أنتِ، أو ربما يعلمه خاله راعي الإبل!".

- لا أنت ولا خاله، ومنذ متى أفلحتم في التربية أيها الرجال؟ هذا ابني وأنا أولى به.

صارت صفية هي التي تأخذ يحيى إلى البحر، وعوض تدريبه في وضع أفقي، علمته الوقوف في الماء وقبوله نشاطا جديدا في حياته، الاستمتاع برشرشته والتقافز مع الأطفال مرحا، والتحرك في خط موازٍ للساحل، "ما دامت قدماك على الأرض فلا تخف، أنت بخير والأمور طيبة"، رسّخت هذا المبدأ بتكراره على مسمعه، ثم تركته يختط طريقه، لم تدرك أنّ الأطفال يحفظون العبارة بكل أشكالها المنطقية، وأنّ المخالفة تجعل لغياب الأرض من تحت قدميه وقع الكارثة. كانت خطتها أن يَدْعسَ الخوفَ ويعتاد نزول الماء، ثم مع الوقت لا بد أنه سيحرك ذراعيه كمجذافين، ويطفو بساقيه ويحركهما كذيل سمكة، خطة مريحة لطفل لا شك ليس في عجلة من أمره، وها هو ذا بعد سنوات من الدرس

---

[1] شبكة صيد قطنية يتراوح طولها بين 12-15 مترًا
[2] سمكة صفراء بطول الكفّ
[3] أسماك ليس محببة
[4] جمع قبقوب: وهو السلطعون البحري
[5] لسان بحري في اليابسة
[6] عصا طويلة ذات رأس معدني مدبب وطويل، لا أشبه منها بالحربة
[7] البطاطا الحلوة
[8] قليل الحيلة
[9] الثقل المعدني الذي يضمن وصول خيط الصيد إلى القاع

الأول ينطلق نحو البحر مع أبناء خالاته لممارسة"تحدّي الموج"، لعبة لها قانون واحد، واضح وسهل، القوي هو الذي يبقى واقفًا بعد موجة عالية. تدفع صفية ابنها نحو البحر بنسيم تشجيعها، ويعود فيرتمي في احتفالها، تراقبه من الشرفة ولو طال بها الوقت، وتبتسم من تحت برقعها كلما صفّق فرحًا بانتصاره، أو تلوّى حسيرا على خسارته. في إحدى تلك التحديات، تسمّرَ في مكانه فجأة، وتجمدت ملامح وجهه، فتحلّق حوله أصحابه وظلوا يسألونه ما بك، وهو يجيبهم بصرخات معجمة، وأمه تنظر من بعيد ممسكة بغطاء برأسها متقية الشمس والأعين، تنجو من انزلاقة أو اثنتين في نزولها مسرعة على الدرج، تفتح الباب الأمامي، وتنطلق نحو الشاطئ حيث يحيى مستلق على ظهره يرتجف، تمسك ذراعه فاحصةً الطفح الجلدي الأشبه بأرخبيل أحمر من رسغه حتى كوعه، تنجح في تخليص ابنها من لدغات القناديل، تفرك ذراع ابنها بالرمل المبلول، ثم عند عودتهم للبيت تقطّر عليه الخلّ لأيام، يشفى جسده سريعًا، لكنه من بعدها لا يقارب الماء سابحًا ولا صيّادًا، لقد غدر به البحر.

نشأ يحيى في أسرة تشتري الحرير وخشب العود من الهند، والزبيب والكشمير من أفغانستان، والعسل والبنّ من اليمن، والمعاطف الصوفية من إنجلترا، لكنها لم تكن كذلك منذ تكوينها، فقد عمل أهله في الغوص المُضني على اللؤلؤ، ثم انتقلوا إلى صيد السمك بعد انخفاض الطلب على اللؤلؤ الطبيعي لاشتداد المنافسة من الصناعي العَصيّ على التمييز، لقد عبرت عائلة"بن راشد" مع الناجين فتراتِ الكساد العظيم التي نخرت عظام العالم بعد الحربين العالميتين. ثم بعد وفاة"بن راشد" وتقسيم الإرث، استطاع سعيد أن يكوّن مجموعة تجارية لها وزن. سكنَ الخِيامَ، وبيوت العريش، والبيوت الطينية، إلى أن شيّد لأبنائه التسعة فيلا فسيحة، مكسوة بالحجر الطبيعي، مطلة على شاطئ جميرا. وبينا كانت أسر الساحل في مجملها تعمل في البحر، وُسِمَت أسرة"بن راشد" دون غيرها بلقب"الصيّاد"، وذلك لمهارة أفرادها واصطفافهم في نظام أوركسترالي وقت جمع العومة[10]، ليسوا كغيرهم البتة؛ فالصباح الذي يُحلّى بِضَغْوَة[11] يقومون بها صباحٌ بهيج ومبارك لأهل جميرا كلّهم.

لِجِلْد السمك الفضيّ انعكاسٌ على صفحة الماء، بل إن لكل نوع من السمك رسالة تظهر في شكل فوران ذي لمعة خاصة في الليالي المقمرة، ونادرون أولئك الذين يستطيعون التعرّف إلى نوع السمك من سِحْره،"بن راشد" واحد من هذه الثلة، يقف على صخرة كبيرة ويرفع ذقنه حتى تستوي عيناه مع خط الأفق، ثم يرفع ذراعه اليمنى ويمرّرها على وجه البحر جيئة وذهابًا، كماسحة ضوئية. عندما يشرع في هذا الطقس يعلم أبناؤه أن الصمت هو الأوجب، لا يحاولون مجاراته في قراءة الماء، ويكتفون بمؤازرته بالنظر جهة البحر دون السعي إلى الملاحظة. تستمر المراقبة حتى اللحظات التي تسبق الفجر، حين تغشى الأرض سكينة ودفء مباغت، يصيح أحدهم:"بانت الشيفة[12]"، ويبقى الأب واقفًا وجهًا لوجه مع الخليج:"هيا، عليك أن تفشي لي سرًّا يا صديقي، كفى صمتًا..."، وفي لحظة لا يمكن التنبؤ بها تتوقف ذراعه مشيرة إلى نقطة ما، يصيح الأب بالأبناء:"هناك، جاكم الخير يا رجال، جاكم الخير..."، يهرع الجميع إلى حمل"اليلّ[13]" الذي فُرز وطُوي بعد آخر مرة حصلوا فيها على الغنائم، يُبلّ صوف الشبك فترتخي بعض العقد، ويعمل الرجال والنساء على حلحلة الباقي، إنها معركة، ولا وقت للتفريق بين المحاربين بحسب الجنس أو العمر، فالشأن أعظم من ذلك؛ إما أن يظفروا بسرب السردين أو يُحْكِم الجوعُ قَبْضتَه، العدو الوحيد الأقسى من الحَرّ على هذا الساحل الظامئ. يشق النورُ رقبة الليل ويتنفس الصبح، ينطلق الصيادون في مغامرة استدراج السردين إلى الشاطئ عبر لعبة المراقصة والإيهام، حتى يحاصروه، ثم تتغير قوانين اللعبة، مركب في الشرق وآخر يقابله، يضرب البحارة بأرجلهم أسطح المراكب لإرباك السمك، إذا أردت أن تهزم خصمًا فما عليك إلا أن تزعزع استقراره، تزلزله، وتجعل القرار بيده وهو في أوج خوفه حيث لا يظهر الفرق جليًا بين الصواب والخطأ، وسترى أنه غالبًا ما يختار القفز إلى فخاخك، ويعينك على نفسه. الأمتار الأخيرة هي الأصعب، يلتحم المركبان بالرمل ويحكمان الحصار على السرب الهائج، إنه يتشكل في هيئات عديدة، مرة كثور، وأخرى كهاون مسنّن يضغط على مفاصل الشبكة. صيد السمك هو فنّ التمايل مع الخصم حتى إنهاكه، من يتعبْ أولًا يخسرْ، وكلما علا شأنك في المهنة أصبحت مسألة شرف أكثر من أي شيء آخر.

تشتعل السماء بالسراج العظيم، فتنعصر أجساد البحارة، ويظهر الإنهاك على بعضهم، أما عيال"بن راشد" فلا يحق لهم ذلك، الأكف متشبثة بالحبال، وعروق السواعد مشرئبة، والأب بصوته المجلجل يعلن أنه وقت الحسم، فيهتف الرجال في أزيز منتظم:"يا الله.. يا رزّاق، يا الله.. يا وهّاب، يا الله..."، يُسحب الشبك إلى الشاطئ ضد رغبة المخلوقات العاشقة للحرية والتطواف اللانهائي في عالمها الأزرق. أثناء الضغا، يمر فتيان أسرة"بن راشد" كالنحل بالماء والتمر على الرجال الذين يقفون على شكل مثلث قاعدته هلال الشبك، ورأسه الأب، أما في الخلف فيقف أهل جميرا مترقبين وفي أيديهم سلال مصنوعة من سعف النخيل، وأكياس قماشية من ملابس قديمة، ثم تندلق الغنيمة من يد البحر إلى كفّي البر، يعم الخير، وتطنّ المساءات بالدعاء. حمل سعيد تلك المهارات إلى مهنة المقاولات، يبقى رابط الجأش أمام أصعب المشاريع حتى ينتزع

[10] السردين
[11] الضغوة: جمع السمك باستخدام الشبك
[12] طلع الصبح
[13] اليلّ: شبك قطني كبير

النصر من يد خصمه؛ مورّدًا كان أو شريكًا، أو عصيان فريقه، بل ولو كان الخصم هو الوقت بجبروته، ويتغنى بعد كل نصر بأمجاد أبيه وأهله حين كانوا كتيبة صغيرة لاستجلاب الرزق لقريتهم، أما حماسته فكان يَغْذوها بترديد الآية القرآنية الكريمة: "ومن الشياطين كلّ بنّاء وغوّاص.."[14]، ويصيح بالتحدي في المواقف الساخنة "نحن الشياطين، فأروني ما لديكم يا أبناء الـ.."، لا ينفكّ يجرّع أبناءه من تلك البطولات إلى أن تشرّبوها تمامًا، فتعلموا التجارة، وجعلوا لرحلات صيد السمك فسحة لا تُمسّ في أسبوعهم الغاص بالأعمال، أما يحيى فلم يزد على معرفة قصص أبيه وأعمامه للتندّر في اجتماعات العائلة، واستعراض الأصالة أمام زملائه متعددي الأعراق المقيمين في دبي، والمتلمّسين ولو خيطًا مهترئًا يصلهم بأهلها وماضيها، كما يستذكر تاريخ جدّه قصدَ الإجابة عن شيء من أسئلته الوجودية، وقد دأب أبوه على مناداته بالدكتور منذ التحاقه بالابتدائية، فرأت أمه في الإصرار على هذا اللقب إقصاء عن التجارة، وتحجيمًا مغلفًا بالتشجيع، حتى تحقق ما أراد الأبوان؛ فالحصول على شهادة طب الأسنان كان بلوغ أقرب نقطة إلى جراحة القلب، فهي - أقلّه - تجيز لصاحبها وأهله الاستمتاع بترديد اللقب، وكتابة دال متبوعة بنقطة قبل اسمه، وفي تأسيس عيادته الخاصة ولوج لعالم التجارة وإنْ "من الشباك أو الباب الخلفي" كما يقول هلال.

يحيى مخضرم على أرضه، فمواليد الخط الفاصل بين القحط وقيام الدولة التي ستصبح بعد عقود قليلة عاصمة الشرق الاقتصادية لم ينزلقوا على أرض من الزبد كما يظن من جاءهم متأخرًا، كان أبناء تلك الحقبة يكبرون مع بلادهم، الأبناء بعمر الأم؛ إذًا من يعتني بمن؟ وقد أدرك والداه أن شبابه المرتبك بين سجون الفضيلة ومعامِع الرذيلة في هذه المدينة الفوّارة لن يخمد سوى بالابتعادِ للدراسة، والعودة بورق مزخرف ومختوم بشعار مؤسسة أكاديمية كبرى، فأكمل المرحلة الجامعية في المملكة المتحدة، ولم يسأل أبدا إن كان النّهاوَنْد[15] أقل شجنًا، لأنه أصبح عاشقا لموسيقى الجاز التي لا يفتأ يشبّهها بدبي ذاتها، فسيفساء من الألحان والمدارس الذوقية منصهرة في بوتقة واحدة، وبعد تخرجه أصبحت سياقة سيارته ليلًا والاستماع إلى الجاز جرعة أسبوعية ضرورية، إنها تمنحه رسوخ الأشجار، يشاركه في ذلك صديقه وليد الذي تخرّج بعده بعامين من ذات الجامعة، ثم التزم بعمل جزئي في مستشفى خاص في الإمارات.

أن تكون فتى يخوض بواكير الثمانينيات في دبي بكل ما قدمته من خيارات مغايرة وصادمة يعني أن تُطهى في قِدْر بحجم خريطة، أو تدخل غرفة المرايا المتعرجة في حدائق الملاهي وترى نفسك مختلفًا بعد كل خطوة، ثم تنصبّ السنوات كمطر حامض. وبعد حادثة الغرق التي نَكبت ثلاث أسر في جميرا، عملت صفية ألا يخرج ابنها من البيت إلا لماما، لكنها لم تنجح، فلا مناص من الرياضة الأشبه بتعويذة؛ كرة القدم التي تقام لها على الشواطئ الرملية بطولات ومهرجانات، ثم ينتقون الأفضل لمواجهة أحياء مجاورة، كانت رغم تنظيمها المُهلهل مصدر متعة وتفاعل بين الفتيان، ومضمارًا خصبًا لاختبار الربح والمنافسة، والسلطة والخسارة، والانضباط والظلم والتميّز، وغيرها من المعاني الحياتية. يلعب يحيى مدافعًا، وقد خاض مع فريقه مباريات ضارية حتى فازوا ببطولة منطقة "برّ-دبي"، وتم تشكيل الفريق الذي سيواجه منطقة "ديرة" على الكأس، غاب شاهين اليوم فاختير يحيى ليكون قلب الدفاع، تكليف فيه شيء من التشريف لفتى ذي مهارات متواضعة، نفخ الحكم في أصابعه معلنا انطلاق المباراة، تطايرت حبات الرمل يمنة ويسرة، حدُّ الملعب هو زبد الموج من جهة، ومن الأخرى فاصل أسمنتي بارتفاع الركبة يفصل الشاطئ عن الأسفلت. البحر اليوم هائج، والريح شمال، وأم يحيى - كعادتها - تراقب من وراء الزجاج، تَمكّن فهد من فريق ديرة من تخطي الدفاع وتسجيل هدف، ثم آخر، تتصاعد الصيحات ويتسارع التنفس، يبدو أن لا أحد يستطيع السيطرة على هذا الفهد، وبعد أن ثقلت الكفة لصالح ديرة، طفق الكابتن يلوم يحيى ويحمله المسؤولية، تخطتِ الكرة للمرة السابعة الخط الوهمي بين نعالين، وقبل أن تصله كلمة تعنيف واحدة هبّ خارجا من الملعب، تبعه الكابتن وظل يلكزه على كتفه داعيًا إياه للبقاء في موضعه، وبعد خطوات قليلة - لم ينصغْ فيها يحيى - تجاوزَهُ الكابتن ووضع أنفه مقابل أنفه، ودفع بِجبهته جبهتَه في استهجان لانسحابه، تدافعا بالأيدي وتعالت الأصوات، هرع بعض اللاعبين لفضّ الاشتباك، استمر التدافع، لكن الأصوات خمدت فجأة سوى من زئير الموج، وفي مشهد ناشز وجد الفتية أم يحيى أمامهم تدفع الكابتن جانبًا محذرة إياه أن يكرر مثل هذا الفعل، ثم تمسك برسغ ابنها، تجره نحو البيت مهذرمة عبارات التوبيخ والسخط. بعد تلك الحادثة بأسابيع نزل يحيى إلى الشاطئ، لكنه لم يلق ترحيبًا من الفتيان، فليس منهم أحد يود أن يجذب من قميصه بِيدٍ لا يقوى على ردها؛ يد سيدة ذات شأن. استمر في محاولات الانخراط إلى أن وجد أن الأجدر هو استدعاء أحد رفاقه إلى البيت وتنعيمه بما لذ وطاب لكسب وده، لكن هذا الدرب كان قصيرًا أيضًا لقلة ما يمكن التسلّي به بين الجدران في ذلك العصر الجدب إلكترونيًا. وجد يحيى نفسه وحيدا لا لأنه انسحب وخذل الآخرين في مباراة كرة قدم، بل لأن امرأة ما أحبته، سيتذكر هذا في وقت لاحق من حياته، ويراه مألوفًا، أن تقع في شراك الحب، يعني أن تتخلى قسرًا عن أشياء أخرى كثيرة، ربما كل شيء، لكن الفريج[16] كالحياة تماما، لا ينطفئ لغياب أحد، يبقى عامرا برواده من الفتيان الذين لم يحظوا بتدريب منهجي على المسموح والممنوع، ليس عليك إلا أن تكون ذئبًا أو تتظاهر، ومع كل قضية عامة تتصدر نشرات الأخبار وقاعات المحاكم لسقوط مجموعة من الشباب في وحل المخدرات وغيرها يقوم الأهالي بوضع ضوابط مؤقتة للحفاظ على الصغار، لكنها سُرعان ما تتحلّل بفعل الضجر وشُحّ البدائل، أما يحيى فكان مراهقًا محظوظ الأهل؛ فهو يفضل البيت والأنشطة الهادئة على الخروج إلى الفريج، ويرضى أن يدخل إلى حجرته مبكرًا ليسهر مع مجلات الأحاجي والتسالي، ثم يحصل على ورقة ماليّة مهيبة مع حلول معرض الشارقة للكتاب لتزويد بياتاته القادمة، وعندما يكون الوقت متاحًا لأبيه فإنه يزور معه المعرض، والمكتبات ومنافذ المعرفة بأشكالها

[14] سورة ص - آية 37

[15] مقام موسيقي يعرف بأنغامه الحزينة

[16] الفريج وجمعها فرجان: الأحياء السكنية

للحصول على أمهات الكتب ليزين بها بيته، وأشرطة فيديو وثائقية عن عالم الحيوان، والحروب العالمية، ومكائد الاستخبارات، وثقافات الشعوب وأديانها، وغيرها مما يمكّنه من مجاراة صديقه خلفان الذي يتدفق في كل جلسة بالنوادر من التاريخ القريب والبعيد، وبذلك ينزاح سعيد في مطالعته عن الأدبيات التي درج عليها، كسيَر عنترة والهلالي والشنفرى وبن حِثْلين، وأشعار الماجدي بن ظاهر وابنته، وحكايات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة، أما الموضوعات الدينية كسيرة ابن هشام وقصص الأنبياء فلم تتوقف عن التدفق نحوه من قنوات عدة، شاء ذلك أو أبى. ثم أصبح الاطلاع على الأفلام الوثائقية عادة يومية لسعيد، فأسس كهفه، اقتنى أكبر تلفزيون في السوق، وهيّأ له رُكنًا في مجلس الرجال، يعرض عليه المواد ويعيدها مرات عديدة لوحْدِه، وأثناء لعب الورق بحضور ضيوفه، وإذا لحظ منهم تململًا، شغّل المسرحيات، والأفلام العربية والهندية التي تغلغلت في أذهانهم حتى باتوا يستطيعون التنبؤ بمدة السكتة، والتعابير، ولغة الجسد، ولحظة الإيماءة الدرامية.

وفي خضم المهرجان الفني والمعرفي في مجلس الصياد، يحرص الأطفال والفتيان أن يحدثوا ما يتيسّر لهم من الفوضى والضجة، ضامنين عدم اكتمال الاستقلال للرجال، ولم يكن ثمة سبيل لإيقاف توافدهم حتى بحجة أن النكات خارجة، وبعض المشاهد في التلفزيون ليست مناسبة، أو أليمة وتتخطى سقف استيعابهم، فالأمهات يردنهم طوافين على طاولة الورق، سماعين للحوارات.

غيّر النقل السهل والاقتصادي بالطائرات مقاييس الخرائط، وبعد أن كان الجبل الأخضر في سلطنة عمان والمناطق المطلة على المحيط الهندي مهربَ أهل الساحل العربي، أصبحت دول شمال أفريقيا وغرب أوروبا ملاذًا صيفيًا، فأسس سعيد الصياد كَهفًا آخر بشرائه شقة رحبة في ضواحي مدينة الضباب، جاء هذا الاستثمار الجريء بعد أن أيقنوا حاجتهم إلى الحضور سنويا إلى لندن لمتابعة حالة يحيى؛ المشي أثناء النوم الذي يأخذه هلِعًا إلى غرفة أبويه، أو في مرة إلى الاستلقاء في البانيو حتى الصباح، أو يجرجره إلى الطابق السفلي، ومنه إلى المطبخ الدبق بملذات الشرق وبهاراته الفوّاحة، والعامر بالأدوات الحادة والحارقة أيضًا. ثم صار يستيقظ من نومه يمثّل مشاهد أضحكت الأسرة، وأفزعتهم، يخاطب زملاءه كأنه ما زال في قاعة الدرس، يأتي من غرفته ويجلس ساكنا ينصت، فيرفع يده للإجابة عن سؤال المعلم، وحين لا يحصل على الاهتمام المنشود يثور، يكرر انتقاده للمواد الدراسية، يتمنى مدرسة أكبر، أكثر خضرة وتعبق بالياسمين، يسخر من أساتذته، يضحك على زميله الممثل البارع، ويتقزز من طريقة أكل آخر. أما أكثر ما أثار حفيظة أبويه فكان تمثيله لمشاهد حرب، وتقمّصه دور ضابط يقود فصيلًا من العسكر سيرًا في خنادق تُقصف، ومعسكرات تُدكّ، يقود رفاقه نحو موضع ما، مستخدمًا عبارات تشجيع نمطية، مختلطة بلغة جسدية بارعة، لم يستطع والداه أن يفهما ما يحدث، لأن فتى نشأ في هذه البقعة من العالم وفي هذا العصر بالذات لا يمكن أن ينشغل بالحرب، فعزيا اجتراره لنهاراته وما تحويه من مشاهدات إلى رهافته، وثقل التجارب عليه.

ثم استيقظ ذات مرة وحمل عصًا واستعملها بندقية رشاشة على أمه وخالاته، وهُنّ بين غارقة في الضحك، ومستغربة، ومشفقة، فترك والداه التفسير الأول وقرآ هذه السلوكيات تأثّرًا بما يعرض في مجلس الرجال من أفلام وثائقية، وتقليدا أعمىً له، احتمل أبوه تأنيب صفية على عرض هذه المواد دون مراعاة أعمار الموجودين، وقَبِلَ بتخفيف الجرعة، واتفق معها على وضع علاقة عكسية بين عرض أخبار الحروب الماضية وتصاعد حالة يحيى، ثم حين وجدوه في حديقة البيت يختبئ خلف جذوع الشجر وينتقل من هذه لتلك بخفة وترصّد لعدوّ مُفترض، انصاع سعيد وحظر الأفلام الوثائقية على نفسه وضيوفه حظرا تاما، وخضع أيضًا لدعوة إمام المسجد لِمُباركة الفتى والقيام بالرقية، فلم يكن سعيد في موقف يسمح له بالرفض أو حتى التأجيل، يأتي الشيخ أثناء نوم الفتى وبحضور أبويه يقرأ سورة الجن بصوت عالٍ في أذنه اليمنى، وسورة الإخلاص والمعوذات في اليسرى سبع مرات، وكلما تكررت النوبات أتاهم بفكرة مبتكرة لمحاربة الأرواح الشريرة، مرة بإشعال البخور وإبقاء الرماد في زوايا الغرفة، ومرة بإزالة كافة ألواح المرايا من البيت، بعد عقود سينتقم يحيى من هذا الفعل بتكسية الجدران في غرفته وغرف أبنائه بألواح المرايا. لم يُوفّق الإمام في إيقاف الهلوسة ومشاهد الليل، فتقدم للأسرة بهجمة مركبة على المسّ الذي يُقسِم أنه أصاب ابنهم لتقصيرهم في التحصين، وهي أن يكتب سورة من الطِّوَل كاملة بماء الزعفران والورد ويسكبه في أوانٍ يَشرب منها يحيى طوال الأسبوع، أما الباقي من الماء فيصب في قارورة بَخّاخة لنشر البركة والحماية في أجواء الغرفة قبيل النوم، مع تشغيل شرائط القرآن على مستوى صوت عال طوال الليل ولو أنها أقلقت منامه، "وما الضير في استيقاظه وهو حاصل لا محالة من أثر المسّ؟!" شرب أبوه الشاي شهره ذاك بالنعناع فقط؛ لأن المنكهات الأخرى كانت تستهلك بلا هوادة في محاربة الأرواح الشريرة، وقد أصبح بعض إخوة يحيى يستخدمون البخّاخ الذي يحوي الماء المُزعفر لمقاومته إن استيقظ وتسبب في إرعابهم بهلوسته، يرشون يحيى كأنه حشرة تلدغ، رغم أن تلك البخاخات ملئت من الصنبور ولم تكتب بها أي سورة قرآنية.

سكتت النوبات عن يحيى بضعة أيام، فاستبشروا بزوال الغمة، وتغنّوا ببركة الإمام، لكنها سُرعان ما عادت في صور أكثر غرابة، حيث صار يحيى يحاور المحيطين ساعة استيقاظه منتصف الليل في شؤون الحرب، ويدير منفردًا ساحة مشتعلة، يناول، ويستلم، ويقنص، ويصرخ، ويتقرفص واضعًا يديه على رأسه، يكرّ ويفرّ، ثم يعود يلتحق بالجمع، وينقضّ هو وزملاؤه على كتيبة غافلة، وما إن يحققوا نصرًا ولو جزئيًا حتى يعودوا إلى الاستتار في الغابات؛ كراسي طاولة الطعام، هكذا كان يفعل ثم يهدأ، ويمشي ناكسَ الرأس نحو سريره، ويخلد إلى نومة عميقة. وفي مرة بكى بحرقة فَقْدَ جندي من زملائه، شرع يلفّه بذراعيه، يسقيه الماء ويلقّنه كلمات مطمئنة، يحتضنه ويذرف ماءً مالحًا. ثم يستيقظ في الصباح ويذهب إلى المدرسة دون ذكر لما حدث.

درة التاج كانت باستيقاظه ووصوله على غفلة الأم إلى مجلس الرجال وإلقائه خطبة عصماء للسياسي والأديب ونستن تشرتشل، تلك التي ألقاها في مجلس العموم البريطاني للمرة الأولى عقب توليه منصب رئيس الوزراء: "إنني أؤكد لمجلس العموم، كما سبق وأن أكدت لأولئك الذين انضموا لهذه الحكومة، بأنْ ليس لدي ما أقدمه غير الدم والكدح والدموع والعرق، والآن.. ونحن نواجه محنة من أكثر المحن ضراوة

وشراسة، أمامنا شهور طويلة من الصراع والمعاناة، وقد تتساءلون ما هي سياستنا؟ لن تكون سياستنا إلا خوض غمار الحرب، بحرًا وبرًا وجوًا، بكل ما أوتينا من قوة، وبكل ما يسخره لنا الله من عزم وثبات، وأن نسخّر إمكاناتنا العسكرية ضد قوى الجبروت، والطغيان الذي لم يسبق له مثيل في بشاعته، وارتكابه أبشع الجرائم ضد الإنسانية. تلك هي سياستنا، لا غير، وإن سألتموني عن أهدافنا أجبتكم بكلمة واحدة: النصر، النصر مهما كلّف، النصر بالرغم من كل الإرهاب، ولا شيء غير النصر، النصر مهما بعدت علينا الدروب وشقت، حيث إنه دون النصر لن يتسنى لنا البقاء"[17].

وبقدر ما افتخر الأب بلسان ابنه الإنجليزي المبين، وبحفظه وإلقائه خطبة بالغة التأثير في تاريخ العالم المعاصر لرجل يبجّله بقدر ما أحس أن كتفيه تتشرّخان من حجم المسؤولية، فقد أخبره أحد ضيوفه، وكان يعرف شيئًا أو شيئين عن اللغة الإنجليزية، أنها ليست مما عُرض في أي من الأفلام الوثائقية التي تعرض في المجلس، فكّر الأب: "لعلّ يحيى يطلع على هذه المواد في بيوت أخرى، أو لعلها من الشرائط القديمة التي نسينا محتوياتها، أو تلك التي ضاعت أثناء إعادة تأثيث المجلس!"، في الصباح التالي بينما فنجان القهوة في يده ظل يقدّم لأمّ يحيى ويؤخّر، ثم أطلعها على ما حدث:

- دخل يحيى المجلس البارحة ونحن نلعب الورق، كرّ خطبة كاملة باللغة الإنجليزية الفصيحة للزعيم تشرتشل، رشح جسمي ما رشح من الماء...

سكتت قليلا، ولما عقلت ما قال سعيد وراكمت فوقه مشاهداتها لسلوك ابنها المريب:

- حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله عليك، وعلى الورق والفيديو، وكل ما يحصل في مجلسكم، بالله عليك أيّ هواية زَفِرة هذه التي تقضون فيها الساعات الطوال في اللعب عديم المعنى على إيقاع القنابل وزحف الدبابات في ذاك الصندوق الملعون؟! والله لو أنك عدت إلى صيد السمك، مهنة أبيك وجدك، لكان أحسن لك ولنا...
- يا امرأة، ليس الأمر كما تظنّين، لو كانت الأشرطة هي السبب لأحرقتها جميعًا أمام عينيك، إلا أن ما أفزعني أن هذه الخطبة بالذات ليست في المواد الوثائقية التي نعرضها في مجلس الرجال، هكذا أخبرني خلفان.
- ماذا تقول؟ ما معنى هذا؟! يا للمصيبة! ما معنى هذا؟ ولدي يردد كلمات رجل ميت، ابني متلبّس؟! اسمع يا سعيد، اسمع يا سعيد...

تتكلم بتقطيع للحروف وضغط على أواخر الكلمات، وتضرب بكفيها فخذيها وتسمحهما،

إن لم تفعل شيئًا إزاء هذا فلا تلمني على ما سيحدث، لن تردَّني عِشرة ولا غيرها، سآخذ ابني إلى بيت إخوتي لعلّهم يكونون أكثر رأفة ونفعًا.

- اهدئي، لا داعي لتهويل الأمر، سأذهب غدا إلى المدرسة وأتأكد أنها ليست ضمن المقرر، لعله خير.
- بل اليوم يا سعيد، اليوم!
- طيب، اليوم، وبعدها نقرر ما نفعل.

تاهوا في أفكارهم: "ما أحسنَ أن تحصل معجزة وتكون الخطبة واردة في المنهج المدرسي وينتهي الأمر من توّه!"، لكن المدرسة تؤكد على لسان مديرها: "هدئ من روعك يا أبا يحيى، ولا داعي لوضع افتراضات جزافية، الخطب التي يتضمنها المنهج هي تلك المأخوذة من تراثنا المجيد، لا مكان في كتبنا ولا وقت في العام الدراسي للاطلاع على تاريخ الآخر، نحن بالكاد نعرف أنفسنا..."، لم يُرد سعيد أن يفتح جبهة جدل مع مدير المدرسة حول الفكرة التي قدمها، فعلى طبقه من الأعمال ما يكفي، بل ويزيد عن حاجته، والأهم الآن هو التخطيط لرحلة علاج ربما تطول، وحجز المواعيد والقيام بما يلزم، وعليه قبل كل شيء إبقاء أم يحيى في حالة مستقرة: "يكفينا مريض واحد في البيت"، هكذا قال لابنه هلال.

سعيد كغيره من الرجال؛ له أسرار يتوجب عليه أن يصطحب معظمها إلى عتمة قبره، أما بعضها فأشبه بقطع الإسفنج التي تبقى خفيفة حتى تبتل بحادث جلل، وقتئذ تثقل، ويصبح التخفّف منها لزامًا، وها هي أسرته تخوض المرض والشك، ولا طاقة له بهذا، يدعو صديقه إلى جلسة ضحوية في مكتبه بمنطقة العوير الصناعية، يضع أوزاره على الطاولة بشجاعة:

- خلفان.. أتتذكّر عندما ذهبت مع العيال إلى لندن أواخر السبعينيات، وتأخرت زوجتي بسبب مرض خالتها المفاجئ واضطرارها إلى البقاء معها في المستشفى؟
- ...، ليس تماما، لماذا؟
- لا بأس، في الأسبوع الأول من تلك الرحلة حلّت علينا اللعنة، اقترح علينا موظف الخدمات في الفندق أن نقوم بجولة سياحية تضم تنقّلًا بالباص في معالم المدينة، ثم بالسفينة في نهر التايمز، وكما تعلم فإنني أثق بمن يحدثونني بالعربية في الغربة، ولعلك مثلي، قبلت الاقتراح، ثم تناولنا الفطور وعقدت اتفاقًا مع العيال أن أتولّى رعاية يحيى في حديقة الهايد أول الصباح، أما أخته ففي

[17] بتصرف من: hekmah.org، منشور بتاريخ 11/7/2016 بعنوان: "تسع خطب قوية التأثير والفعالية أدت إلى تغيير وجه العالم" - ترجمة فاطمة الغامدي.

المتاحف، وأخوه الكبير في الباصات والسفينة، وقُضي الأمر، مرّ وقت الحديقة بسلام رغم مراكبها البلاستيكية الخفيفة، وجسرها خفيض الحاجز، والدراجات والمزالج المسرعة التي تتهافت كالعفاريت من كل صوب. ثم ذهبنا إلى متحف التاريخ الطبيعي وكان يومها يحتفي بالفراشات بمعرض خاص، ولإمتاعك عليّ أن أذكر أن المعرض عُنون باسم بطلك، أو فلأقل بطلنا تشرتشل، أسموه: "المخلوقات التي أحبّها قائدنا"، استمتع الأبناء، وتعلمنا كثيرًا، شُغف يحيى بهذه الحشرة الطائرة، وظل يسأل عنها في مختلف مفاصل الرحلة، عن ألوانها، وسلوكها في الطبيعة، وأطوار نموها، كيف تحيا وكيف تموت، لم يكن بعد قد أجاد الإنجليزية إجادة تتيح له أن يقرأ الشروح تحت المعروضات المحنّطة، وكغيره من الصغار تجاهل حقيقة أن أباه لا يعرف كل شيء، ولا يقرأ كل اللغات، ظل يسأل وأجيبه بمشاهداتي لا بعلمي، هل تعلم يا خلفان أن ألوانها...

- هوّن عليك يا"بو هلال"، صدقني لست مهتمًا كما تظن بالفراشات وتنويعات ألوانها وما إليه، ماذا حدث بعد زيارة المعرض؟

يقولها مبتسمًا ويدير سبّابته كأنها عجلة طلبًا لاستئناف السرد.

- آه.. صحيح، بعدها ركبنا الباصات واحدًا تلو آخر، إلى أن وصلنا إلى جولة السفينة، وصلنا في اللحظات الأخيرة وكانت المقاعد المتاحة متناثرة، فقبلنا بها وتفرّقنا، جلستُ جوارَ سائح خليجي وأخذنا نتبادل آراء وتحليلات حول الأعمال والطفرة العمرانية، ثم نشأت فجوة في الحوار، قلّبت عينيّ في الأرجاء فلم أجد يحيى، فزرت من مكاني كجرادة، جُلّت السفينة، وصعدت إلى المنصة العلوية، لم يساوِ خوفي على الصغير إلا حنقي على الكبير الذي علمت بعد حين أنه انشغل عن أخيه بملاحقة شابة صهباء:

- هداه الله، هكذا هو دائمًا عندما يتعلق الأمر بيحيى، لا مبالٍ، إن سمحت لي بوصفه، ثم ماذا؟
- ثم زفرت السفينة عدة زفرات، وتباطأت حركتها، نزلت السلّم المعدني وكأني أجوز الصراط، خطر لي أن البوق كان يناديني أنا بالذات، هرعت مع زُمرة الفضوليّين إلى المجهز الخلفي، حيث شاهدنا التقاط طفل من البحيرة، وإذا به يحيى بن سعيد، تفجّرتُ بتكرار السؤال على طاقم السفينة بل والركاب أيضًا،"أهو بخير؟"، يجيبونني إما بصمت مليء بالشفقة، أو باستنكار فظّ:"وكيف لنا أن نعلم؟!"، أما بعضهم فآثر التخمين أو الرجاء:"عسى أن يكون بخير..."، ثم أوقفني رجل كان قد فصل نفسه عن الجمع، إنه نادل المقهى الذي أوقع الأكواب قبل قليل، همس وكأنه يفشي سرا، أخبرني أنه شاهد الصبي يطارد فراشة سريعة الحركة أكثر من المعتاد، لامعة وثقيلة فلا يلعب بها الهواء، وأنه لم يشاهد هذه الحشرة الجميلة في النهر طوال السنوات التسع التي قضاها عاملًا على متن السفن السياحية من الصباح إلى المساء، ورغم لطفه الظاهر والذي حرص أن يزخرفه بنظرة ونبرة تبثّان المساندة والتأثّر، إلا أنني شعرت لحظتها أنه كان أكثر فظاظة مِن الآخرين باستفاضته في وصف الفراشة ولمعانها والعُقَد التي ترسمها في الهواء برشاقة عِوضَ إخباري عن ابني، ظل يتكلم عنها كأنها معجزة علمية أو اختراع فريد، وزعم أنّ رَفْرفتَها كانت أشبه بنحلة من حيث السرعة والطنين...
- بو هلال! بالله عليك.. يحيى أم الفراشة؟!
- آه، المعذرة، على كل حال.. تناثرت كلماته فبلغتْ مسمع القبطان الذي وصل متأخرًا، قطع كلامه وأمره أن يعود إلى عمله، وبعد تقديمه بعض العبارات المُعلّبة عن السلامة وأدوار الطاقم أرشدني: "لا شك أن سيارة الإسعاف اخترقت أمواج الزحام وبلغت المستشفى المركزي، توجّه إلى هناك، وكن على ثقة أن ابنك في أيد أمينة، أرجو لك صادقا أن تجده بأفضل حال، أما هذا النادل المعتوه فلا تعره اهتمامك، إن هوسه بالتقنيات يحرمه من رؤية العالم الحقيقي، ويجعله يتوهّم أشياء..."، نزلتُ من السفينة أسابق الوقت،"ليتني لم أتركه لهلال"، هرولت نحو موقف سيارات الأجرة الذي خطر ببالي، أدركت لاحقا أنه لم يكن أفضلَ الخيارات. ما لا يعلمه أحد إلا أخوه الأكبر وأنت الآن يا خلفان أنني عندما وصلت قسم الطوارئ أخبروني أن يحيى قد مات سريريًّا!

راجعًا إلى الوراء قليلا، وفاتحًا عينيه إلى الحد الأقصى منشئًا خطوطا أفقية متوازية في جبهته السمراء يسأل خلفان:

- سعيد! هل حدث هذا حقا؟ لم تخبرني من قبل!

يدفع براحتي كفيه الهواء تجاه جليسه:

- مهلًا، لا وقت للعتاب الآن، اسمع الباقي، توجهت إلى المستشفى وإذا بيحيى في غرفة العناية الفائقة، قدمت الأوراق الثبوتية، ثم اجتمع بي الطبيب وأخبرني أن فرص النجاة متدنية، ذرعت الممر جيئة وذهابا حتى كاد ينفَرق، ثم جلست في قاعة الانتظار لا حيلة لي، وهناك قابلني رجل اسمه مارك وأطلعني على فحوصات تثبت أن الأوكسجين لم يصل إلى دماغ طفلي لبضع دقائق، وأن نسبة من الخلايا قد انطفأت، مما قد يتسبب في إعاقات دائمة، وبعد أن تيقّن أني مستعد لقبول أي شيء، تقدم بعرض خدمة نعتها بالشخصية؛ أن يُنقل يحيى إلى مركز بحثي متطور على أطراف لندن، مركز مستقل يعمل على معالجة الأمراض المستعصية وخاصة المتعلقة بالدماغ والأعصاب، ويعمل بتقنية جديدة لترميم الخلايا بمواد مستخلصة من ذاكرة نبيلة، إما هذا أو المجازفة العمياء، وتوقعات ببطء في النمو الذهني والحركي، لم أتردد:

- كفى، كفى، أنا موافق، كم ستكلف العملية؟

مارك: لا شيء يُذكر، ضع توقيعًا صغيرًا على هذا الإقرار.

ويشير إلى خط متقطع أسفل الصفحة،

- أي شيء تريد، اعد ابني إلى وطنه وبيته سالمًا، ولك ما تريد.
- لنأمل الأفضل، سيكون عليك أن تشرفنا بزيارتك مع البطل مرة كل عام على الأقل، كما أخبرتك.. هي تقنية جديدة، وما سنقوم به لإنعاش يحيى سيتطلب مراقبة دقيقة لتطور الخلايا الدماغية إلى أن يكتمل نموه، ونصبح جميعًا في حل من أمرنا.
- هذا سهل، لندن مزارنا السنوي على أي حال.

استمع خلفان إلى قصة سعيد كاملة دون مداخلات بناءة، فلم ير أن ثمة داعيا لصرف وقت أو جهد لبحث الماضي، فبث سعيد شحنة لانتشال الحوار من نمط المحاضرة أو الحكاية:

- خلفان.. المشكل أن أمّ العيال ما زالت لا تعرف شيئًا عن علاج الدماغ الذي حصل عليه يحيى آنذاك، وأظنه كان قرارًا حكيمًا أن أجنبها تذوق هذا الحِصرم، أما وقد تطور كابوس المشي ليلًا فأراني أقف أمام خيارَيْن أبردهما يصهر الحديد، و...

واضعًا كأس الشاي على الطاولة الزجاجية بحيث سُمع صوت ارتطام، يجيب خلفان:

- لا خيارين ولا ثلاثة، لا أجد لك إلا أن تطلعها يا سعيد، من حق أمه أن تعرف، ومن حقك أن تدفع هذه الصخرة من فوق صدرك.
- لك أن تتخيل ما مررت به كي أحصل على المسامحة على حادثة الغرق، فما بالك لو علِمَتْ بعلاج الدماغ؟!
- ألا تظن أن السنوات تكفلت بكنس هذا النثار؟ كما أن الخَطبَ الآن أجلُّ من أن يُلتفت إلى غيره...

يكافح سعيد فوران ضحكته وينطق الكلمات:

- خلفان.. هل أنا بحاجة إلى تذكيرك بالطريقة التي تفكر بها النساء؟!

في عام 1970 بلغت إمارات الساحل أوج تصالحها، لكن القبلية كانت لا تزال رازحة، قبائل يجمعها نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي متوازن في تضاده وتآلفه، تُغِيرُ هذه على تلك طمعًا في شيء من قطعانها، فترد الأخرى ثأرًا للكرامة، أو ترسل معنىً إلى بعيد بتأديب قريب، تحركات وإن شذّ بعضها إلا أنها محكومة بذات النظام النافذ. وقد حدث أن أغارت مجموعة من الفُتّاك على السواحل، في هجمات متتالية كانت جميعها تتلفع بالليل، وتنتقي خيرة الرجال تقصّدًا للإيلام والإخضاع.

"بن راشد" على الشاطئ يتتبع سِحر السردين من بعيد، يقف على صخرة ويمسح الأفق بقلبه وعينيه، لم يكن لينام وأهل جميرا يشكون قرصة الجوع، وشحّ الموسم. تزوّد سعيد الصياد وإخوته بالراحة استعدادًا لصباح طويل سيقضونه في الصيد بالشباك، يستيقظون قُبيل الفجر، تسبقهم الخادمة حليمة إلى أبيهم بقبضة التمر وطاسة اللبن، منهمكون كلهم في إعداد الحبال والسكاكين وسلال السمك وأوعية المياه، بينما تقوم الأم بإعداد قناني الملح والخل لاستقبال الغنيمة، كما تَصُفّ بعناية ما تدبّرت من أهل الحِرف من السلال بأشكالها المتنوعة والمصنوعة من سعف النخل، لاستخدامها للحفظ والتوزيع، إنهم يدركون أن صيد السمك مهنة لها أصول.

لم تعد حليمة إلى البيت، والفجر قريب، عادة الأب أن يرسل في طلب أبنائه، أو يعود لأخذهم، لكن كلا الأمرين لم يحدث، يطمئنّ سعيد على زوجته في حَملها الصعب، لقد أوصاه أصهاره منذ ارتباطهما ورحيلها معه من مدينة العين أن: "يرعى الله فيها"، ورغم مرور السنين وذوبان صفية - ابنة البادية - في مجتمع البحر، ثم تكرار تجربة الحمل والولادة بعيدا عن ديارها، فسعيد حافظ للعهد، كان قبل ليلتين قد استسمحها على سهره طويلا منادمًا صحبه عن أحوال الساحل وقُطّاع الطرق الغادرين.

إنه الآن يبحث عن حليمة وهو يلهج: "اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمعني بضالتي، اللهم.. بأبي"، يُسرع الخطى، يبحث حول البيوت، ثم يعدو نحو الشاطئ، يسمع طلقة، ثِنْتين، لا يحس برجليه، يجرهما جرًا، وأنفاسه في تسارع ما زالت، يجد حليمة نازفة من بطنها وقد تبقّى منها رمق، تُردّد أنها رأت سيّدها يُغدر من حفنة من الجبناء، تفيض روحها، يخط سعيد في الرمال حتى يصل فيجد أباه مسجّىً، وقد تدفق الدم سخينًا من مؤخر رأسه، فانداحت تحته بقعة حمراء على الشاطئ الأبيض، سيمسحها الموج مع الوقت، فالماء أقوى من كل شيء. حجبت الكواكب في السماء وجوهها من بشاعة المشهد، فالغدر ليس مقبولا حتى في الحروب، وليس من شرف الخصومة. جثا سعيد على ركبتيه، وحثا التراب على رأسه، سُمع نشيجه من بعد، فجاء إخوته وتحلقوا حوله وأبيه. حضر أهل جميرا جميعًا مراسم الدفن، وأيام العزاء، وقفت النساء والولدان يشاهدون رحيل بن راشد، لم يكن محاربًا مغوارًا أو فاتحًا تاريخيًا، لكنه كان صيادًا يندر وجوده، كان اقتصاديًا ورجل صناعة فذًّا.

بعد عدة أسابيع أنجبت صفيّة آخر العنقود لسعيد، فسماه يحيى، وبعدها بأشهر انضمت المدن المتصالحة في دولة واحدة لتعلن طيّ الصفحة على كل ما كان، أشرق عهد جديد، قامت دولة الإمارات العربية المتحدة، وفي المدارس ترددت كل صباح مع مراسم رفع العلم رباعي الألوان: "نموت لتحيا...".

قصة قصيرة: "ظمأ"

ما هي إلا ساعة أو اثنتان ويحين دوري، عندها لن أهدرَ وقتَ أحد، سأقف أمام رجل كثير الضحك والتصفيق، لا مباليًا بنظراته وزمرته، فلم آتِ سوى لأدحرج- بأقصى ما أوتيت من قوّة وتركيز - نردين كبيرين مصنوعين من الخشب المُعالَج، الواحد بحجم حبّة البرتقال، لديّ ثلاث محاولات لأحصل على رقمين متشابهين، وإن حدَث فسيحقّ لي الحصول على عُبوّة سعتها عشرة ليترات من الماء الصالح للشرب.

يحتكر هذا الرجل الماء في المنطقة التي أقطنها وحوالَيْها، وهكذا يحبّ أن يبيعه؛ بالاحتكام إلى الحظّ. تتناثر الأقوال إن أباه لم يُمهلْه ليختبر ما بقي من حماقات الطفولة، هجره صغيرا وأمّه بعد أن خسر بيتهم وكلّ ما يملك على طاولة الروليت، " فظلّ وأمُّه يتنقّلان بين المنازل، والأعمال المؤقّتة، إلى أن جاءت لحظة سَئِم فيها حياته، اكتشف أنها موت بطيء، وفي ليلة لا قمر فيها تحقّق أن أمّه غارقة في سباتها جرّاء عملها المنهِك، تسلّل وأخذ المدّخرات، أراد ليلتها أن يراقص الاحتمالات في صالة صاخبة تخترق الأضواء دخانَها الكثيف، يُسمَعُ في جنباتها صَليلُ العملات في انهمارها المحبّب، وبالرغم من عدم إلمامه بالقوانين أو حيازته للحد الأدنى من الكياسة، ربح ما لا يمكن أن يجنيَه في ألف عام من العمل المتواصل، وعندها شعر أنه اقتصّ من فعلة أبيه. وبعد أن أصبح من ملّاك العقارات وأرباب الشركات عزم على أن يرد الاعتبار للطفولة المغدورة أنّى كانت، لنفسه ومن يشبهونه، فخصّص جزءا من أعماله للّعب والترفيه.

بعد عقود دمّرت حربٌ محطاتِ التحلية التسع في بلده، كانت حربا قصيرة إنما مع عدوّ حقيقي، حقده قديم وحامض، هذا الصنف وحده يعلم كيف يوجعك؛ ضرب المحطات الكبرى والسدود في صيف لن يُنسى، فاستشرى الجفاف، وصارت قنّينة الماء تُباع بستّين دولارا؛ بمئتي ضِعْف، فقامَ الرجل الذي يتعرّف الفُرَصَ من بعيد بإحالة الطابق السابع والخمسين من برج يخصّه إلى مساحة مفتوحة للتنافس على مياه الشرب، قاعة شاسعة مغلّفة بألواح زجاجية زرقاء، ومفروشة بالمرمر المضاء من تحته، سقفها معتم ويرجع الصدى، تتفجّر فيها الرئات بالهتاف والضحك والحسرات. ترددتُ على البرج والقاعة لأسابيع كثيرة خَلت، فألفتُ المكان بعناصره، بل أستطيع التنقّل عبره مُغمض العينين.

حصلتُ السبت الماضي على عبوّتين، أهديت أخي الأكبر وأسرته إحداها، وعدت إلى أمي وزوجتي بالأخرى، أما اليوم فحدسي أني سأخرج خالي الوفاض، فمنذ استيقاظي والأشياء تسقط من يدي، وأشعر أني أمشي ضدّ عاصفة، الحقيقة أن الحظّ لم يكن حليفي لفترات طويلة من حياتي، ولهذا فإني لا أرى جدوى أن أرميَ بالنرد في مسألة مصيرية كهذه، لكنها شروط اللعبة التي وضعها الرجل الذي يكاد يرشح الماء من وجنتيه، النّزقُ في كل حركاته وسكناته، كما أني لا أجيد أيًّا من الألعاب الأخرى، وعلى المحتاج أن يكيّف نفسه.

في الطريق إلى هنا، ومع اجتيازي محطات التفتيش والفحص لدخول المبنى، ثمّ التسجيل والمشاركة كما أفعل منذ ستة أشهر، عاودني السؤال الخشن إن كان يليق ببدويّ مثلي أن يقف هذا الموقف، أو أن يتبرّم من الظمأ؛ أن يتعامل معه كأنّه فاجعة لم تكن في الحسبان.

نعم. خبرت الصحراء وتجرّعت قسوتها، ومع ذلك لم أكن أظن يومًا أن أحيا لأرى الناس يتساقون الماء بفناجين القهوة، ويتجرّعونه رشفات حذرة ومتباعدة. شعرت بعضّة الجوع، وتذوّقت أن تمرّ عليك الأيام، بعضها تلو بعض، دون أن تحصل على وجبة ساخنة، أو حساء يثخّنه القمح، يشعرك بالدفء فضلا عن إيهامك بالشبع. عندما يشرع الجوع في نخر عزيمتك ستبلع دون تفكير ولا تقدير أي شيء يمكنك مضغه؛ ضَبّا نافقا تشويه لتُذهب خَبثَه، أوراق الغاف مفرومة ومُرطّبة بقطرة دهن، خبزة مُبقّعة بالأخضر مَحشوّة بلحم محفوظ بالتمليح، هكذا ازددنا هزالا وعطشا.

أما في المدينة فالغلاء لا الجوع ما دفعني إلى تناول مأكولات مصنّعة من غضاريف الحيوانات، ووجبات مهروسة تحوي بروتين الحشرات بدعوى أن ما تقدّمه فريد ونافع، جرّبت هذا مرارا، أما الظمأ- يا إلهي- فله وقع آخر، والصحراء أمّه وأبوه، تتقنه وتتفنّن فيه.

انتقلنا إلى هذا المجمّع السكني الذي تحيطه وتتخلّله البساتين، وتتوسطه بحيرة متلألئة بمساحة ملعب، يومها ظننت أننا نجونا من مكابدة المحل إلى الأبد، صحيح أننا لم نبتعد كثيرا عن مرابعنا، فالمجمّع الرمادي متاخم للصحراء، تضربه الزوابع من حين لآخر، إلّا أننا وفق الخرائط الرسمية ننتمي لمدينة عصرية تتمدد دون توقّف، رأسيا وأفقيا، تجلجل فيها أضواء الإعلانات والأسواق الكبرى، وتقدّم العروض بالنوافير، وتلعلع فيها درّاجات المغامرين وسيارات الإطفاء الحاملة لآلاف الجالونات من الماء، وتنفق كثيرا- كالحسناء- على زينتها وشواطئها، تلوّن السماء بالبهجة والمفرقعات، ويقيم أهلوها الحفلات على أحواض السباحة. في هذه المدينة الفوّارة لم يكن أكثر اصطدامًا بطبلة أذني من مفردة الوفرة ومرادفاتها، ولم يتردّد في دماغي معنًى كاليُسر والرّغد، هنا. كل ما أتمنّى موجود ليلًا ونهارًا، ويمكن أن يصلني حيث أكون، لا عليّ إلا أن أجعل بطاقتي الائتمانية تنطق بِحَرْفي "كُنْ"، ثم اندلعت الحرب وعزّ الماء، لا تطاله الأيدي، ولا تبلغه البطاقات.

صاح أحدهم برقمي، تقدمت إلى الخطّ المرسوم على الأرض وحملت النردين، قلّبتهما ثم قذفتهما كما يفعل منجنيق، اتخذا مسارًا مقوّسًا ثم سقطا مندفعين للأمام، تدحرجا وارتطما ببعضهما ثم توقّفا، حصلت على اثنين وواحد، ليس من الصعب الحكم أنهما رقمان مختلفان ولا يحققان الشرط الوحيد للفوز بالماء الصالح للشرب، لكنهما صغيران أيضا؛ فقيران، وهذا ما أشعرني بخيبة نادرة، فقد كانت مغمّسة بالخجل من تجلّي النحس فيما أفعل، دائما.

خمد وسواسي حين تذكّرت أن الوفرة لم تكن يوما عنوانا دالًّا في مسيرتي، فقد نشأت في ستينيات القرن العشرين في كنف بدويّ لا يتنقّل، لم يقتنع بأنّ البيت المشيّد بالطين والحصى هو بيت الذلّ، إذ يجبرك على قبول ظروفك كما هي، يحرمك من المبادرة، ويبقيك في خانة الانتظار، لكنه لم يفعل شيئا حيال ذلك.

قضى أبي عُمُرَه يتلفّت بين مِزق السحاب الفارغ، يقتات على الأمل، يطلق بصره بعيدا كأنه إثر طريدة، فنرى في عينيه وشرودِهما حوارًا محتدما مع القدر، يخاطبه كمن يذكّر شريكًا ببند في عقد، بحقٍّ يتحتّم أداؤه، ثم يدير وجهه إلينا ويُقسِم لي ولأمّي أن الأحوال ستتغيّر، يزخرف الأماني، ويعدنا بالفرج كأن الرحمة مخزونة في جيبه.

هكذا كان أبي، مؤمنا أصيلا بالبخت، ومقتنعًا أنه لا بد أن ينصفك على امتداد الزمن، على عكسه كانت أمي التي لا تلتفت للغيبيّات، ولا تُفرد لها حيّزًا في قصصها جوار الحطب المشتعل، وإنما تُعلي من شأن المشهودات. لا تملّ من تذكيري أن نزولي من بطنها ذَكرًا كان السبب الحقيقي في تحسّن أحوالنا، وأنه التمثُّل الأصدق لما يسمّيه أبي حسن الحظ، أصرّت على تسميتي "غيث"، في رسالة أبدية لأبي أننا من نصنع واقعنا بأيدينا؛ "الريّال يريّل عِمره"، ولعلّ أبي قبل الاسم كي يبرّئ نفسه من الأثرة؛ أقسى التُّهم في البوادي وتجمّعات النُّدرة، كي يجعل من اسم ولده بُشرى لقومه، فالماء يجلب الخصب والنماء للجميع، أما الولد فخير لأسرته وحدها، ربّما.

نَقر أحد المنظّمين كتفي بأصابعه الثقيلة استدعاءً لي من شرودي، واستعجالا لأُلقي بالنردين، حملتهما، أمسكتهما جيدا وألصقتهما الواحد بالآخر، عدت خطوتين، ثلاثا إلى الوراء، ثم وَثَبتُ وأفلتّهما في الهواء، أردت أن أستجدي الجاذبية الأرضية أن تتدخّل كما يليق بأمّ وتضع حدًّا للعابثين، أيكون الرجل المستدير الوجه غيّر مركز الثقل في النردين؟ تملّكَتْه شراسة الربح فتلاعبَ بالاحتمالات، رجّح خسارة خصومه، وبهذا عبث بما نظنّه النصيب، نحن الظمأى السذّج كما ينبغي أن نكون؟ استقرت المكعّبات على الرخام سريعا، كان أشبه بسقوط حرّ، حصلت على ستة وأربعة، ورغم أني لم أفلح في الحصول على عبوّة العشرة ليترات ابتسمت، فللكثرة نشوتُها، حينها بدوتُ أبلهَ لا يعي كثافة الحقائق، فانتفضتُ، لكمت كفّي اليُسرى، صرختُ جزعًا ليروا أني متفاعلٌ مع الموقف، فأجّلوا رميتي الثالثة إلى أن أتمالك نفسي، أشار لي المنظّم العملاق إلى منطقة الراحة في زاوية القاعة، حيث يمكنني أن أسكن لخمس دقائق، مُنحت خلالها إطلالة على المدينة، وحبيبات من القهوة لأستنشقها، فمضغتها.

أنعش البنّ ذاكرتي، غزتني الأطياف؛ أمّي تبوح لي أن حياتنا لم تخلُ من مشاهد مغايرة للمعتاد، ليست مبهجة تماما لكنها تنضح بمعاني الكثرة، منها يوم كبُر ربّ أسرتنا عشرَ سنين في نهار واحد، عاد من صلاة الفجر وانتظر طويلا حضور أخي الأكبر ليتناولا الفطور معًا، ثم أدرك أن سليّم بَرّ بِقَسمه ورحل نحو بقعة ظن أنها أكثر رحمة، حيث يُضخّ الماء والغاز والكهرباء إلى البيوت.

لَم يرحل سليّم لأنه شبّ بيد يمنى قصيرة فلم تدّخر البادية جهدا في تلقينه أن الضعف ليس مسموحا، ولا نكاية بأبي على مراهنته الخاسرة على البقعة التي اختارها لتشييد بيتنا، بل لأنه "التطوّر الطبيعي لأبناء الأرياف والمناطق النائية، هي مسألة وقت، ليس إلّا"، هكذا قال يوم جاءنا زائرًا وقد صرت فتىً. علمت بعد ردح من الزمن أنّه كان محقا، فالصحراء هي الصحراء، ولن تغيّر عاداتها في امتحان أبنائها، والقرب من الماء يمنح معنى للوقت، للحياة بأكملها. كما تعلّمت من سليّم أن أتعامل مع البركة على أنها نوع من خِفّة اليد القابلة للتعلّم، لا ضربا عصيًّا من السِّحر، طاقة من الممكن تسخيرها لصالحك بمعادلة بسيطة: "العيش من العيش، مب من قولة بسم الله"، وسليّم بذلك - بحسب أبي - ابنُ أمّه. ثم أتى الجفاف وأنساني كلّ شيء.

تصقلك البادية، تنحتك فكرة فكرة، عضلة عضلة، تفرش ذاكرتك بالحشائش، المفيدة أحيانا، بقوانين النجاة، بالحذر والحنكة، منها أن العزوة تعينك على الترحال واستحقاق بدويّتك، والاكتفاء يغدق عليك المَنعة، ويمنحك حق الاختيار. وعليك ألا تنسى أبدًا أن للقدر رأيًا غالبا، فبعد زيجتين خاضهما أبي، أثمرتا خمس بنات نجيبات وولدين، سيرحل أكبرهما ليجاور البحر في عصر العمران والرخاء، جئت إلى هذا الحيّز من الكون متأخّرا، قليلَ البكاء، ولعلّي أجّلته لساعة الحاجة، فالدمع ماء، والماء هنا باهظ، يكلّفك فقدُه كثيرا، ماشيتَك وزرعَك؛ قوّتَك وكرامتك، كلّ شيء. ثمّ انهمر العمر سريعا، صرت كهلا في جسد شاب، كبرت لأقتسم التعب والأرغفة الصلبة مع صبيح الشاعر، "القرص[18]" بعضه تراب، تُجهد فكّيك في مضغه لترمّم جسدك بأصل معدنه، وتبقى جائعا.

نودي رقمي مرة ثالثة، أخيرة، رأيت في تعابير المنظّمين أني لست المتسابق المفضّل، فلم أعد أقدم المتعة أو الإثارة اللازمتين للسيّد أو لمن يجلسون خلف العدسات، ما قد يؤخّر مشاركتي القادمة، لا يهمني أيٌّ من هذا الآن، همّي أن أعود لأسرتي بالماء، فلم ننتقل من الصحراء إلى المدينة إلّا هربا من سطوة الظمأ، والجوع كذلك.

خطوت أسرع، وقفت على الخط، لا تقهقرَ ولا وَثْبَ، أمسكت بالخشب المنقّط وألقيت كل نرد في اتجاه، مددتُ ذراعيّ على أقصاهما، كمن يستعد لاحتضان حبيب عاد من غياب، وجّهت عينيّ إلى السماء، وهتفت بتراكيب ليست ذات معنى، زفرات الحماسة التي يأبى الفك إلا أن يتطفّل عليها بإضافة أحرف، هدأ المكان إلّا من تدحرج المكعّبات، شعرت أن اللحظات امتطّت فصارت دقائق، بل ساعات، وكأنني انتقلت إلى بعد آخر من الزمن حيث كل شيء أبطأ، حتى الأصوات، ارتطام قويّ له صدى، تبعته دقات خفيفة، ثم سكون، لم يقل أحد شيئا، وإنما انفجر الرجل وزمرته في ضحك هستيري، كأنهم دِيَكة مُستفَزّة، حفر عينيَّ بنظرة طويلة، ثم قال بصوت الفائز: "غدًا يوم آخر".

[18] قرص البدو، أو قرص الجمر

قصة قصيرة: "جوع"

لم يتناول وجبة منذ سبعة وثلاثين أسبوعا، لكنه يشعر بتخمة، رجلاه ثقيلتان، في عينيه غبش، ورأسه أضيق من أن تتحرك فيه عدة أفكار في وقت واحد، ولهذا فقد منح فضاءه كاملا لهدف وحيد، وهو أن يحصل على أقراص تغذية ذات جودة أعلى من التي يورّدها سيروان؛ جاره في البناية الذي كان يعمل مساعدَ صيدلاني، وصار - بفعل المجاعة- يحادثه بلغة البائعين المثقّبة: "بالنظر إلى شح الطعام وصعوبة تخزينه، الحبوب التي بين يديك هي بلا ريب أفضل المتاح يا مسعود، أمّنتها لك بسعر جيد لأجل ما بيننا من ودّ"، بعد أخذ وردّ يرفع سيروان الجهد الكهربي ليليق بمحتكر لسلعة ضرورية: "الأمر عائد لك. إن لم تأخذ الكمية، فثمة مشترون كُثر، ردّ عليّ قبل السادسة مساء".

منذ أن أصبحت الحقيقة عصيّةً على الإخماد، تلافى مسعود إهدار وقته في حوارات تشعلها الأسئلة الاستنكارية، تلك التي لا تبحث عن إجابات بقدر ما تمنح طارحها السلطة المتولّدة عن زعم المعرفة المسبقة بمآلات الأمور ومصائر البشر، وفي الوقت نفسه لا تفوّت أن تسفّ اللوم في وجه المخاطَب، أسئلة مثل: "ألم أقل لكم..."، أو أخرى أهدأ: "من كان ليحدِسَ أنّ سَلّة العالم من الطعام ستصبح Δ بفضل شركات قديرة وجادّة في تغطية النقص Δ أكثر ثراء، إنما بأصناف مُسمّمة، كلّها؟ راجعوا تقريري بتاريخ..."، فحتى رجل بخبرة مسعود لا يملك رفاهية التحليل في مرحلة كهذه، والحاضر بالنسبة له أولى بالتناول، دائما.

ليس مسعود من الذين نعموا بالشبع طيلة حياته، إلا أنه حصل على قسط وافر منه لزُهاء ربع قرن، فبعد إتمامه للدراسة الجامعية عمل ضابطا في هيئة الإحصاء والضرائب، ثم محلّلا ماليا مستقلًّا بموازين مرهفة أثبتت نجاعتها في اقتناص الفرص وتحديد المخاطر، درّت عليه معادن نفيسة، وأكسبته سمعة الصقر في البرية.

انطلق يبحث عن حياة جديدة فعيّنته شركة استثمارية عابرة للمحيطات مضاربًا في أسواق الأسهم، قضى ما يكفي من الوقت مع الأرقام ليدرك أن لأثر الفراشة تجلياته اليومية، وأن المجاعة، وإن بدأت في مدينة في أقاصي الخرائط، ستتسلّل خَلل شرايين النظام العالمي إلى بقية المناطق والدول في غضون أشهر قليلة، كغيرها من الطواعين في الألفية الثالثة.

سمع خطواتها قريبة من بلاده، تابع نموّها على حسابات أصدقائه القدامى في دول الشمال، ورأى الآراء المُضادة التي تصفهم بالهرطقة الاقتصادية، وتارة بأن ما يقومون به محاولات مغرضة لإلهاء الرأي العام عن القضايا الكبرى. أراد أن يشق قناةً للحقيقة في عالم ضاجّ ومشغول بالاستهلاك، فكتب مقالة باللغة العالمية ضمّنها حقائق وإحصاءات من المناطق المنسيّة، نشرها على صفحته، ثم نشر أخرى بلغته، وغيرها من اللغات بالاستعانة بشبكة أصدقائه الأوفياء للهدف كما له، لكن البشر، بما هم كائنات بارعة في إنكار ما يخشون، والسخرية مما يجهلون، لم يخيّبوا ظنه، وظلت كلماته طافية، كألواح خشبية في عرض البحر.

في المراحل المبكرة، قبل أن تمزق الأخبار شرنقتها وتنطلق في الاتجاهات كلها، سافر مسعود- رفقة مجموعة من الناشطين وبغطاءٍ أنها رحلات سياحية خاصة- إلى البقع التي نخر عظامَها القحط، بلغ المناطق المنكوبة بزوارق في الأنهار، وعبر ممرات ضيقة في الجبال، ومشيا في سهول لا يصل البصر آخرها، وعلى ظهور الدواب في الأراضي الوعرة، رأى بعينيه مجاميع الهُزالى تزحف من بقعة لأخرى، بدون بطاقات ائتمان أو حقائب سفر، أرتال من الشاحبين تجتاح الحقول، تجرّدها من اخضرارها، تحيلها يبابًا، وتستمرّ، فكر أن الأرض لم تكن بهذا العراء أول ما خلقت.

شرع يخاطب وسائل الإعلام فحصل على ردود بلا ملامح. ثم ببعض التهوّر تقمص دور صحفي، وهيّأ صدفة مسائية في مقهى فاره، ليخوض حوارًا مع واحد من أساطين الإعلام، شرح له الأخير أن الأضواء في الوقت الراهن مُسلطة على شؤون أهم للبشرية، كالحروب والأزمات الاقتصادية، والفضائح وتلاسن المشاهير، وأن العمل الصحفيّ خاضع لأولويات تحدّدها ذائقة الجمهور، لا طموحات الناشطين وأطروحاتهم النبيلة.

في المرات التي لم يتمكن من ملامسة الجوع بأصابعه، سجّل مسعود وأصحابه بعدسات محمولة على مسيّرات مشاهد لأولئك البشر يجزّون الحشائش بأيديهم ويأكلونها، يتسلقون الأشجار لقطف ما تبقى من ثمر، ضلوع صدورهم مشدودة بجلود رقيقة، وفقرات ظهورهم قابلة للعَدّ عن بعد، رأى أعينَهم السادرة، وصمتَهم الماكِن.

كان يعود كل مرة إلى مدينته ذات الشوارع اللامعة والأبنية الصقيلة، يبثّ الصور في الفضاء الإلكتروني رغم قناعته أن مفرمة الحياة لا تمنح الناس فرصة التأمل في أحوال غيرهم، اللهم إلا عندما يشعرون بالتهديد المباشر.

لم تحصد مقالاته ولا منشوراته علامات الإعجاب إلا قليلا، ولم تصبح قصصه من الأكثر تداولا، أدرك أن المعركة تتطلب أسلحة أخرى؛ فاعتنى بشَعْره ولبس بدلته المفضّلة، لم يكن مستعدا لأن يُنظر إليه كواحد من المجاذيب أو المشرّدين، نزل إلى الميدان الأكثر ازدحاما، أنشأ منصة إخبارية بأدوات بدائية، علّق على رقبته لوحة بيضاء كتب عليها بقلم أحمر سميك، وشكّل الحروف بالأزرق: "إن أردت ألّا تجوع، فلا تشبع"، فعل ما بوسعه لبضعة أيام لجذب المارّة، لكنه ابن هذا المكان، ويعلم كم من الوقت لدى المشاة- على اختلافهم- في مدينة عصرية، وعليه لم يرفع طموحه إلى مستوى السذاجة، ذاب صوتُه.

لكن الحقيقة تجد لها طريقا دائما، هكذا تفعل، كغاز يتسرب الهوينى حتى يغطي الأغشية؛ انتشرت الأخبار على المنصات، وفي القنوات الشعبية، دقت المؤسسات الرسمية طبولها تؤكد القصص المتداولة، ومسعود يقرأ زامًّا شفتيه من لذاعة البطء، يضع جهازه المحمول جانبا،

ويُميل رأسه يتمعّن السقف لفترات، ينام كثيرا، يقرأ ويدمع، ثم يقرأ ويبتسم، يتابع التطورات كعرض قديم حافظ على عناصره المسلية، حيث يمارس غول الإعلام ألاعيبه الأثيرة؛ التقديم والتأخير، الاجتزاء والتشويه، الإظهار والتعتيم، وغيرها.

في سويعات صارت المجاعة بأخبارها الدبقة جاثمة على صدر العالم، عندها علم مسعود أن الهدف قد تحقق، بشكل ما وفي الوقت الذي أريد له، عندها أبقى عينيه على هدف آخر، أبطأ تنفّسه كقنّاص مخلص؛ عزم أن يسعى للنجاة، فهو أيضا يستحقها، قرر أن يعمل على خطة اكتفاء، فأحال شقته ذات الغرفتين التي يقطنها لوحده منذ سبع سنين مستودعًا للأطعمة طويلة الأمد، الخزائن الفارغة من الثياب للمعلّبات الثقيلة، الأدراج للبهارات عوض العطور في زمن آخر.

قبل سبعة وثلاثين أسبوعا ونيّف، تناسى مسعود ما كتبه مرارا في مقالاته الإرشادية عن المدّخرات المنزلية التي من بعض سماتها أن تعمل كمغناطيس للغرباء الملهوفين.

استيقظ من نومه، وحجرته كما يحبّها غارقة في السواد، على رقبته معدن بارد، سيعلم بعد دقائق أنه سكين مسنّن في يدٍ لم تصافحه، ملءُ عينيه وجه ذو عظام بارزة، وفم غامق يغدق عليه النصح أن يلزم الهدوء تفاديا للفوضى. في الغرفة المجاورة جلبة وشجار حول الطريقة التي ستُنقل بها علب الفول والفاصوليا والعدس، وصفائح السردين والتونة، أما أكياس الأرز الكبيرة فأمرها يسير، سمع أصواتهم وهمهماتهم باتفاق أنهم سيلقونها من النافذة، حفظا للجهد والوقت.

بيت مسعود يفرغ من الأطعمة، تنتفخ أوداجه، يحاول كتم ضحكته لكنه ينفجر من أنفه بعد نَخْرة أو اثنتين، يُفلت نَفْسه رغم تحذيرات المُمسِك بالسلاح، يهتزّ مغمِضًا عينيه، فتشاكس رقبتُه حدَّ السكين، وفي رأسه ترنّ فكرة مفادها أنه ليس إلا واحدا من الرجال الذين يتأخرون في الفهم، وأن الأقراص التي كانت تُستخدم في الماضي غذاءً لروّاد الفضاء، هي أفضل المتاح الآن، بل الخيار الوحيد، وسيتصل بسيروان صباحا للتزوّد منها، ولن ينسى أن يعتذر عن بُطْء فهمه.